الفصل السابع
ماذا بقي من ميراث السنكارية السياسية؟

مقدمة:

لا مراء في أن الفكر السياسي والاجتماعي لتوماس سانكارا لا يزال وثيق الصلة بنضالات وعذابات الشعوب الأفريقية في الوقت الحاضر. فمنذ اغتيال سانكارا عام ١٩٨٧ لا تزال قضايا الفساد والهيمنة السياسية والاقتصادية على مقدرات الأفارقة واقعاً ملموساً، كما أن المرأة الأفريقية تعاني من أوضاع عدم المساواة الثقافية والتهميش الاجتماعي.

تعددت الآراء في الحكم على تجربة سانكارا. هناك من رآه وصوره على أنه مثالي حالم بعيد عن أرض الواقع وغير مكترث بالقيود الموضوعية التي تفرضها البيئة الداخلية والإقليمية والدولية على حركته السياسية بينما رأى البعض الأخر أن سانكارا زعيم يمتلك كل سمات القائد الكارزمي الذي استطاع في فترة وجيزة أن يمتلك قلوب وعقول أبناء وطنه. وفي نفس السياق عاب عليه نفر من مؤيديه أنه كان يميل إلى إطلاق المبادرات والمشاريع الكبرى دون أدنى اعتبار لطريقة التنفيذ والموارد اللازمة.

وعلى أية حال فإن الرجل لم يكن قائداً بيروقراطياً عادياً، ولكنه كان شاباً ثورياً آمن بمبادئ وآليات التغيير الاشتراكي. لقد كان صاحب رؤية وبصيرة بعيدة المدى. لم يمل إلى تبني الحلول التقليدية السهلة، كما أنه ابتعد عن منطق المباراة غير الصفرية، القائمة على التوفيق، في حركته من أجل تغيير مجتمعه. وفي نفس السياق لم يؤمن أيضاً بالإصلاح التدريجي، وإنما كان مبتغاه النهائي هو تحطيم آلة الدولة الموروثة وقطع كافة الروابط مع النظام القديم من أجل تحقيق تطلعات

الجماهير الشعبية في إقامة مجتمع جديد يخلو من الظلم والاضطهاد والتهميش. كان مولعاً دائماً بالقول بأنه: «أيما رجل استطاع أن يحلم فإنه بالغ هدفه». ولعل ذلك كله يؤكد منطق «السنكارية» السياسية القائم على التفكير الإبداعي من خارج الصندوق التقليدي. يقول في مقابلة مشهورة :« إن التغيير الجوهري في المجتمع يحتاج إلى قدر من الجنون. ألم يربط البعض منا حتى اليوم الإبداع بشيء من الجنون؟!».

طبقاً لأحد الباحثين فإن سانكارا لم يكن طوباوياً حالماً حيث تمكن في السنوات الأربع التي قضاها في السلطة أن يضع المبادرات التي لم يكن أحد يتصورها من قبل موضع التنفيذ. لقد فعل ذلك من خلال إقناع البسطاء من الناس بأن لديهم قدرة على التغيير. كان الرجل يمتلك مهارات استثنائية بوصفة خطيباً مفوهاً يصل إلى قلوب الجماهير بحسن عباراته التي لا تخلو من خفة ظل واضحة وذكاء متقد. ليس هذا فحسب فقد طابقت أفعاله أقواله بما يدل على الصدق والصراحة والتواضع. كان الرجل دائم الاختلاط بالقرويين البسطاء، يركب دراجته ويسير بها في شوارع العاصمة واغادوغو، كما يلعب كرة القدم مرتدياً قميصه وسرواله القصير وسط الشباب وكأنه واحد منهم، وليس رئيس دولة بحرسه وقوات أمنه الخاص.

كان سانكارا يعتمد في توصيل رسائله للجمهور على استخدام وسائل رمزية لم تكن تخلو من طابع مسرحي واستعراضي في أحيان كثيرة. وعلى سبيل كان يعمد إلى سياسات المكاشفة والمصارحة في الوظائف العامة. فالموازنات العامة للحكومة عادة ما كانت تتم مناقشتها في التجمعات الجماهيرية والمؤتمرات الشعبية، كما أن كبار المديرين في الشركات المملوكة للدولة خضعوا لجلسات استجواب عامة. وقد طلب من جميع موظفي الحكومة ارتداء الأزياء البوركينابية التقليدية المصنوعة من القطن وذلك بهدف تشجيع الصناعة المحلية وتحقيق مبدأ الاكتفاء الذاتي.

ولعل من أبرز الأمور التي لم تخلو من طرافة أن الرجل حول مناسبة الاحتفال

بيوم المرأة العالمي إلى ممارسات عملية تدعم من تعزيز ثقافة المساواة وتمكين المرأة في المجتمع. فقد أمر الرجال في ذلك اليوم أن يذهبوا إلى السوق عوضاً عن زوجاتهم أو يقوموا بغرس شجرة تكريماً لهن. لقد استطاع سانكارا خلال فترة حكمه تنفيذ برامج طموحة في مجالات الإصلاح الزراعي والتعليم والصحة وحماية البيئة وإجراءات محاربة الفساد. كما أنه ألغى ضرائب الرؤوس والعمل البشري لصالح الزعماء التقليديين في القرى. وقد زادت نسبة المشاركة الشعبية في الحياة العامة بما في ذلك تمكين المرأة. كما أنه ألغى العادات التقليدية المتعلقة بختان النساء وتعدد الزوجات[1].

لقد كان سانكارا زعيماً شعبوياً ملتصقاً بالجماهير وحين سئل لماذا لا تعلق صوره في الأماكن العامة أسوة بالزعماء الأفارقة لآخرين رد قائلاً: «هناك سبعة ملايين توماس سانكارا». وببساطة شديدة فإنه اعتبر نفسه «واحداً من الناس» .

ما الذي تقدمه «السنكارية السياسية» للفكر السياسي والاجتماعي الأفريقي؟. وكيف يمكن الاعتماد عليها اليوم في إحداث تغيرات وتحولات كبرى من أجل تحقيق النهضة الأفريقية. يرى كاتونغولي Katongole إن النموذج الذي تطرحه قيادة سانكارا يستطيع أن يقدم ثلاثة مقومات تمثل أساساً لابتكار المستقبل وهي: الرؤية والجنون الثوري والتضحية.

أولاً: الرؤية الثاقبة

كان توماس سانكارا على وعي تام بالتطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي شهدته بوركينافاسو في ظل الاستعمار والاستعمار الجديد، كما أنه كان على وعي كذلك بضرورة تغيير هذه الأوضاع وبناء مجتمع جديد. ولفهم الوضوح الفكري الذي ميز نمط قيادة توماس سانكارا ينبغي العودة إلى خصائص القيادة الثورية القادرة على تغيير مجتمعاتها. هذا النمط من القيادة يستند على فلسفة للحكم ركيزتها النزاهة والقدرة على بلورة رؤى واضحة وترجمتها إلى حقائق

(1) Katongale, p88.

ملموسة من أجل تغيير حياة الناس للأفضل. ويمتلك القائد في هذا النموذج الشجاعة التي تمكنه من مواجهة التناقضات السائدة التي تواجهه في كل مرحلة من مراحل التنمية. أضف إلى ذلك فإن حدود التفكير تؤهله وتمكنه من التوقع والقيادة في عمليات التنمية الرئيسية والتي تؤثر على حياة الأجيال القادمة.

كان سانكارا يتحدث عن تغيير المناخ والمساواة بين الجنسين ومكافحة الفساد وإلغاء الديون وينظر إليه البعض إما باستغراب أو باستهزاء. ومع ذلك فإن هذه القضايا تحتل قائمة الأجندة الأفريقية والعالمية اليوم. لقد كان توماس سانكارا في الطليعة عندما بدت مثل هذه القضايا هامشية وغير ذات أولوية.

ثانياً : الجنون الثوري

لقد مكن جنون توماس سانكارا الثوري أن تحقق بلاده إنجازات كبرى في فترة زمنية قصيرة. وهذا يعني أن أفريقيا اليوم بحاجة إلى قادة ثوريين من أمثال سانكارا عوضاً عن نمط القيادة البروقراطية السائد. أفريقيا بحاجة إلى قادة يستطيعون فهم التحديات التي تواجهها وفي نفس الوقت يمتلكون الرؤية التي تمكنهم من العبور إلى المستقبل من خلال تجاوز عقبات الحاضر. لقد كانت توقعات سانكارا كبيرة جداً وبلغت آماله عنان السماء.

ولعل من أفضل ما كتب عن نمط القيادة الذي طرحه سانكارا هو تقييم قدمه أحد القرويين حينما علم بخبر وفاته، يقول في ذلك:«لم أفاجأ بخبر مقتله على الرغم من أن الثورة أخذتني على حين غرة. اجتمع حوله رجال معدومي الضمير، كان مبلغ همهم الثراء الفاحش وركوب السيارات الفارهة. استطاعت الثورة أن تغير أشياء كثيرة، ليس بالضرورة إلى أفضل الأحوال. ولكن بسبب الثورة تعلمنا تحديد نمط السياسيين الذين نحتاج إليهم. لقد علمتنا أن نعمل بأنفسنا ولأنفسنا. على أن سانكارا أراد تغير كل شيء بسرعة شديدة. لقد توقع أكثر من اللازم. لو كنت رئيساً لفعلت الشيء نفسه الذي فعله سانكارا وأرسلت الوزراء إلى القرى من أجل التعلم ومد يد العون للفلاحين. ولعل أفضل فكرة علمنا إياها سانكارا

تمثلت في أنه لا ينبغي العيش بما نحصل عليه من أجور كل شهر، وإنما نعيش بحد الكفاف ونعطي الباقي من أجل تنمية البلاد بدلاً من المطالبة بالحصول على مساعدات من الخارج»[1].

ثالثاً: التضحية والالتحام بقضايا الجماهير

لعل من أبرز القضايا الكبرى التي دافع عنها توماس سانكارا بحماس منقطع النظير دعمه الثابت لجميع النضالات الثورية الشعبية ولجميع حركات المقاومة ضد الهيمنة الامبريالية والقمع الاستعماري. ففي خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٤ أكتوبر ١٩٨٤ ذكر سانكارا صراحة: أن ثورة بوركينا فاسو تمد ذراعيها لتدافع عن معاناة كل الشعوب. كما أنها تعتمد في مصدر إلهامها على خبرات الشعوب منذ فجر التاريخ الإنساني. إننا نود أن نكون ورثة كل ثورات العالم وحركات تحرر شعوب العالم الثالث». لقد استلهم سانكارا رؤيته في إحداث التغير الجذري والتضحية من أجل الجماهير من الثورات والنضالات الكبرى في جميع أنحاء العالم. ولعل ذلك يفسر لنا تضامنه مع نضالات الشعوب المضطهدة ضد قوى الهيمنة.

لقد حظيت تجربة توماس سانكارا وفكره السياسي والاجتماعي باهتمام كبير خارج بلاده ولايزال حتى اليوم يمثل مصدر إلهام لكثير من الفنانين والشباب في أفريقيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية. قارن البعض بينه وبين زعماء آخرين ضحوا بحياتهم من أجل المبادئ التي اعتنقوها مثل باتريس لومومبا وأميلكار كابرال. مثلت أفكار سانكار تحدياً كبيراً للنظام القائم ولاسيما هيمنة فرنسا في فضائها الاستراتيجي بمنطقة غرب أفريقيا الفرنسية، بالإضافة إلى النظم الإقليمية المتواطئة مع القوى الاستعمارية الجديدة وقوى الهيمنة العالمية الجديدة.

على الرغم من محاولات نظام بليز كومباوري طمس إرث توماس سانكارا فإن

(1)Who killed the lion king, the internationalist. http://newint.org/features/1995/06/05/lionking

هناك مؤشرات كثيرة تدل على تنامي شعبية جيفارا الأفريقي ليس فقط داخل أفريقيا، بل أيضا في العديد من بلدان أوروبا وأمريكا الجنوبية. لقد نُشرت عنه العديد من الأعمال الاجتماعية والسياسية باللغات الأوروبية الرئيسية مثل الفرنسية والايطالية والانجليزية. وفي يوم ١٥ أكتوبر من كل عام يتم تنظيم العديد من الاحتفالات في جميع أنحاء العالم لتكريم ذكراه. ولا يخفى أن هناك نحو ثلاثين جمعية من الجمعيات الدولية المناهضة للعولمة تنظم احتفاليات ضد الديون باعتبارها غير شرعية، وهي بهذا تستلهم الروح النضالية لتوماس سانكارا وموقفه الحازم ضد دفع الديون[١].

ألهم سانكارا العديد من الفنانين الذين كتبوا وصاغوا إبداعاتهم عن مبادئه ومثله العليا. وفي هذا السياق نستطيع ذكر العديد من الموسيقيين البارزين، مثل تيكن جاه فاكولي، أو ديدييه العوضي، الذين يعتبرون توماس سانكارا نموذجا يحتذى للشباب الأفريقي. كما أضحت صوره تمثل سوقا رائجة لمصممي الملابس حيث أعادوا طباعتها بمختلف الأشكال. وهناك كذلك العديد من الأفلام الوثائقية التي تؤرخ لمسيرة نضال توماس سانكارا ، وقد أعيد بث بعض هذه الأفلام على شاشات التلفزيون عدة مرات، كما تمت ترجمتها إلى عدة لغات مختلفة. ولعل أشهر هذه الأفلام : «توماس سانكارا» وهو عبارة عن سيرة ذاتية وقصة حلمه الثورى الذي لم يكتمل، وهو من إنتاج القناة الرابعة البريطانية عام ١٩٩١. يوجد أيضا الفيلم الأشهر الذي قدمه روبن شفيلد بعنوان :« توماس سانكارا:الرجل المستقيم». ومن بين أبرز الأعمال الفنية كذلك فيلم «على خطى توماس سانكارا»، وهو فيلم وثائقي متكامل ترجم أيضا إلى عدة لغات وتم توزيعه في العديد من البلدان.

ولعل أحد نقاط الضعف الكبرى التي نالت من تجربة سانكارا الثورية وأسهمت في إسقاطها سريعاً أنه لم يقدر حجم أعدائه بالداخل والخارج. لقد أسهمت سياسات الرجل الراديكالية في مجال الإصلاح الزراعي وإعادة توزيع الأراضي من الإقطاعيين لصالح فقراء الفلاحين إلى زيادة الإنتاج وتحقيق الاكتفاء

(١) أنظر على سبيل المثال: اللجنة من أجل إلغاء ديون العالم الثالث CADTM ورابطها : /http://arabic.cadtm.org

الذاتي. فقد ارتفع إنتاج القمح في فترة ثلاث سنوات فقط من ١٧٠٠ كجم لكل هيكتار إلى (٣٨٠٠) كجم لكل هيكتار. وهو ما حقق الاكتفاء الذاتي من القمح.

حاول «تشي أفريقيا» أن يسلك طريقاً ثالثاً من خلال التضامن مع شعوب العالم الثالث بعيداً عن الاستقطابات الدولية. وعليه فإن الحركات المناهضة للعولمة لا تزال تنظر إلى «السنكارية» بحسبانها بديلاً أو على الأقل أساساً لتصور طريق آخر مختلف للنهضة الأفريقية يعتمد على الاستقلال والاكتفاء الذاتي.

لقد قام توماس سنكارا بكتابة النشيد الرسمي لبوركينا فاسو والذي يقول[1]:

ليلة واحدة جمعت في ذاتها تاريخ شعب

في ليلة واحدة أعلنت مسيرة الظفر نحو آفاق سعيدة

ليلة واحدة وحدت شعبنا مع كل شعوب العالم

لتحقيق الحرية والتقدم

الوطن أو الموت: سننتصر

واستنادا إلى الإرث التاريخي للسنكارية، ارتدى المتظاهرون في انتفاضة أكتوبر ٢٠١٤ قمصانا تحمل صورته وألواحا محفور عليها كلماته، ولافتات كتب عليها: «يسقط بليز» بليز ارحل! ولا يزال الجدل حول السنكارية السياسية محتدما داخل بوركينا فاسو وحتى خارجها حيث تأسست أحزاب وتنظيمات سياسية تحمل مبادىء وفكر توماس سانكارا مثال ذلك حزب الاتحاد من أجل النهضة/ الحزب السنكاري. وقبيل اندلاع الانتفاضة الشعبية التي أطاحت بالرئيس بليز كومباوري عقدت التيارات السنكارية في بوركينا فاسو مؤتمرا بمناسبة اغتياله وكان موضوع المؤتمر هو « ضرورة وحدة التيار السنكاري من أجل طرح بديل لبوركينا فاسو». لقد ألهمت مبادىء السنكارية تنظيمات أفريقية

(١) عبدالجليل معالي ، سنكارا.. حلم ببناء «أرض الرجال النزهاء» واقتحم المحظور في العرف الاستعماري،العرب، نُشر في ٢٦/ ١٠/ ٢٠١٣، العدد: ٩٣٦٠، ص١٤.

راديكالية مثل «المناضلين من أجل الحرية الاقتصادية» (EFF)، وهو حزب اشتراكي ثوري في جنوب أفريقيا بزعامة جوليوس ماليما.

وعلى أية حال فإن أبرز أفكار توماس سانكارا والمرتبطة بواقع بلاده وأفريقيا اليوم تتمثل في ما يلي:

- **شكل الديمقراطية**، حيث كان سانكارا يرفض الحياة الحزبية ويؤمن بتمكين الشعب بشكل مباشر. ولعله يؤكد على فهم جورج بادمور للاشتراكية الديموقراطية التي تعني الحكم من أجل ، وبواسطة الشعب. فقد كانت كل قرية تجتمع لاختيار ممثليها في لجان الدفاع عن الثورة. على أنه بعد رحيل سانكارا تم تقويض هذه الآلية الانتخابية أثناء حكم كومباوري.

- **مبدأ العدالة للجميع**، فقد كان الجميع سواء أمام المحاكم الشعبية الثورية حيث لهم الحق في التعويض القانوني والحصول على الحماية ضد السرقة أو المظالم الأخرى دون الحاجة إلى توكيل محام.

- **في الاقتصاد**، كانت تجربة سانكارا في تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء مثيرة للاهتمام. بيد أن هذا الاكتفاء الذاتي من الغذاء لم يتحقق في ظل حكم كومباوري، حيث أضحت بوركينا فاسو تستورد من الصين كميات كبيرة من الأرز. معنى ذلك أن تجربة توماس سانكارا تقول أنه من الممكن تماما لبوركينا فاسو أن تعتمد على نفسها في توفير الغذاء.

- **التربية والتعليم**. اتخذت حكومة سانكارا خطوات كبيرة نحو جعل التعليم في متناول الجميع، بما في ذلك كل من الذكور والإناث. وعلى الرغم من أن حكومة كومباوري أصدرت عام ٢٠٠٥ قانون المساواة في الحصول على التعليم فإنه كان مجرد حبر على ورق حيث يتطلب الأمر ضرورة مجانية التعليم .

- **الجيش**: في سنوات الثورة، كان الجيش جزءا من الشعب ومن ثم انتشرت عبارة: الجنود المواطنون. بيد أن هذا تغير تماما في ظل حكم كومباوري. حيث أصبح الجيش فوق الشعب.

- **البيئة:** في سنوات حكم سانكارا، زرعت كل قرية مئات من الأشجار، وفي كل حفل أو مناسبة اجتماعية تتم زراعة الأشجار. وقد توقف هذا التقليد في ظل حكم كومباوري، وهو ما أدى إلى عودة زحف الصحراء مرة أخرى.

- **محاربة الفساد.** اتخذ سانكارا موقفا قويا وحاسما ضد الفساد، فقد وقف في وجه الممارسات الفاسدة في كافة قطاعات الحكومة. بيد أن حكم كومباوري شهد عودة هذه الممارسات مرة أخرى على نطاق واسع:، إذ انشغل المسئولون الحكوميون بنهب عائدات الضرائب لبناء منازل فاخرة لأنفسهم وقضاء عطلاتهم في أوروبا والولايات المتحدة. على أن أسوأ جانب من جوانب الفساد في مرحلة ما بعد سانكارا كان يتمثل في الإفلات التام من العقاب من قبل المسؤولين الحكوميين حالة ارتكابهم أي جرائم .

- **الصناعة:** بدأت حكومة سانكارا الاستثمار في مجال الصناعات الحكومية، مثل المنسوجات والملابس باستخدام المواد المنتجة محليا مع الاعتماد على التصاميم التقليدية، وذلك بهدف تغطية حاجات الاستهلاك المحلي. بيد أن هذه الصناعات تم خصخصتها من قبل نظام كومباوري، وهو ما أدى إلى خفض انتاجيتها.

- **حقوق المرأة:** اهتمت حكومة سانكارا بتمكين المرأة حيث كانت النساء على رأس عدة وزارات، وتولين مراكز قيادية في المجتمع عموما. بيد أن كومباوري قد أعاد عقارب الساعة إلى الوراء.

وعلى أية حال فإنه طبقا لمؤشرات الاقتصاد الكلي كانت معدلات الأداء الاقتصادي لفترة حكم سانكارا ناجحة في إجراءات التثبيت الاقتصادي وإحداث نمو مع مراعاة البعد الاجتماعي. فقد وصل معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي (٣،٥٪) سنويا خلال الفترة من ١٩٨٣ وحتى عام ١٩٨٧، وتضمن ذلك أيضا معدل نمو سنوي (٦،٢ ٪) للناتج المحلي الإجمالي لكل فرد، وهي نسبة تفوق مثيلاتها في دول أفريقيا جنوب الصحراء أو في الفترات السابقة من تاريخ بوركينا فاسو في مرحلة ما بعد الاستعمار. ففي أعقاب فترات الكساد التي عطلت معايش

البلاد والعباد في السبعينيات من القرن الماضي ارتفع إنتاج قطاع المحاصيل الزراعية بمعدل سنوي غير مسبوق وصل إلى (١٤٪) خلال الفترة من ١٩٨٣ وحتى عام ١٩٨٨ ، وهو ما يعكس الأثر الإيجابي لسياسة الاكتفاء الذاتي في القطاع الزراعي وإصرار الحكومة على تحقيق الأمن الغذائي[١].

ومن الملاحظ كذلك أن إنتاجية المحاصيل النقدية ولاسيما القطن، كما ذكرنا من قبل، قد ازدادت بشكل ملحوظ خلال فترة حكم سانكارا. ما الذي حدث إذن وتغير عن المراحل السابقة؟ إنها ببساطة روح السنكارية الثورية التي ألهبت حماس الجماهير وجعلتهم غاية التنمية ووسيلتها في آن واحد. لقد أدرك سانكارا قيمة ما يتحدث عنه الفقه الواعي في تراثنا الإسلامي بأن «الساجد قبل المساجد والإنسان قبل البنيان». يعني ذلك كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب إرادة التغيير والوعي بأهميته.لقد اتجهت حكومة سانكارا إلى انتهاج جملة من السياسات التي تهدف زيادة الإنتاج الزراعي، ومن ذلك: تحسين الظروف الطبيعية وتصحيح سياسات التسعير الحكومية، وتحسين عمليات التوزيع والتسويق للإنتاج، بالإضافة إلى دعم الاستثمارات الهادفة لرفع الإنتاجية الزراعية من خلال الأبحاث العلمية وتقنيات المحافظة على المياه.

وعلى الرغم من بعض المؤشرات الاقتصادية السلبية، ولاسيما في قطاع الصناعة والمالية العامة فإن سياسات النمو الاقتصادي التي اتبعها نظام سانكارا كانت ناجحة. إذ لأول مرة في تاريخها تشهد بوركينا فاسو مشاركة شعبية واسعة النطاق في تنمية الموارد البشرية وإقامة المدارس والمراكز الصحية في القرى. وقد مكنت الإصلاحات الهيكلية في بنية الدولة ومحاربة الفساد من تحسين أداء قطاع الخدمة المدنية . وقد آتت حملات التثقيف السياسي للجماهير أكلها حيث أصبح القرويون على وعي تام بأهمية مشاركتهم في جهود التنمية من خلال العمل المنتج أو المساهمات المادية.

(١)Savadogo, Kimseyinga, and Claude Wetta. The Impact of Self-Imposed Adjustment: The Case of Burkina Faso, 1983-1989, op. cit., p. 44.